

## حريق القاهرة المقدمات والنتائج

### مظاهرات جنود الشرطة وطلبة الجامعة

في مساء يوم الجمعة ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ نشرت وزارة الداخلية عن طريق دار الإذاعة أنباء مجزرة الإسماعيلية التي حدثت في ذلك اليوم ، وتوالت منذ استفاضة أنباء مجزرة الإسماعيلية بأن يوم السبت سيكون يوماً عبوساً قمطريراً ففي الساعة السادسة من صباح ٢٦ يناير تمرد جنود بلوكات نظام الأقاليم في ثكنتهم بالعباسية ، وامتنعوا عن القيام بما كلفوا به من الذهاب إلى الجهات المختصة لهم لحفظ الأمن بالعاصمة وخرجوا من ثكناتهم حاملين أسلحتهم في مظاهرة صاخبة يتصايحون بالسخط على ما أصاب زملاءهم في الإسماعيلية طالبين السلاح للقتال وساروا بجموعهم من العباسية إلى الأزهر إلى ميدان العتبة الخضراء ومنه إلى ميدان الإسماعيلية ( التحرير ) فالجيزة واتجهوا إلى جامعة فؤاد ( جامعة القاهرة ) وكانت الساعة قد بلغت التاسعة صباحاً ، وهناك اختلطوا بالطلبة ، وتبادلوا وإياهم شعور السخط والهياج وسار الجميع في موكب المظاهرة إلى العاصمة يطوفون بالشوارع صائحين صاخبين .

ومنذ الساعة التاسعة صباحاً أخذت مظاهرات عدة تتدفق على ميدان عابدين ومنه إلى رياضة مجلس الوزراء وقد التقت هذه المظاهرات بمظاهرة جنود بلوكات النظام وطلبة جامعة فؤاد ووصل الجميع تبعاً إلى دار رياضة مجلس الوزراء وكان

ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف . وفي فناء هذه الدار أطل على المتظاهرين وزير الشؤون الاجتماعية عبد الفتاح حسن وألقى فيهم خطبة حماسية جارى فيها شعورهم .

ثم تركت هذه الجموع دار الرياسة وانسابت في قلب العاصمة صائحة منادية بحمل السلاح والسفر إلى القنال لمحاربة الإنجليز، وكانت أبناء هذه المظاهرات وتحركاتها تبلى في حينها إلى وزارة الداخلية ولكنها لم تخرج لتفضها .<sup>(1)</sup>

وكيف تقوم وزارة الداخلية بفض المظاهرات التي ما قامت إلا لتتدد بما فعله الإنجليز بجنود البوليس التابعين لوزارة الداخلية !

### المظاهرات السلمية والفئة الهندسة

وللأسف فأن المظاهرات قد أخذت بعد ذلك منحى آخر فلم يكتف المتظاهرون بالصياح والهيّاج بل شرعوا يهاجمون المحال والمنشآت الإنجليزية وهذا ما لم تكن تتوقعه وزارة الداخلية .

فقد قام بعض عناصر الشغب الهندسة بين المتظاهرين بإضرام النار في كازينو أوبرا ، وللأسف انتشرت عدوى إشعال الحرائق وإتلاف الممتلكات العامة والخاصة أو نهبها بين المتظاهرين فتوالت حوادث إشعال النار والإتلاف والنهب فيما بين الظهر والمغرب فاجتاحت شوارع وميادين بأكملها .

بلغ عدد المحلات والمنشآت التي أصابها الحريق والدمار نيفاً وسبعمئة معظمها مملوكة للأجانب ، وبعضها مملوكة لمصريين وكلها تقع في أجمل وأكبر

(1) عبد الرحمن الرفاعي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " مرجع سابق ص ١٢١ - ١٢٣ بتصرف .

أحياء العاصمة . وبلغ عدد القتلى في هذا اليوم ٢٦ شخصاً منهم ١٣ في بنك باركليز وتسعة في الثورف كلوب وواحد أمام بنك باركليز واثنان أمام محل عمر أفندي وواحد توفي أثناء حريق أحد المتاجر بشارع شريف ، وبلغ عدد من أصيبوا بحروق أو كسور أو جروح ٥٥٢ شخصاً .

وترتب على حوادث الحريق أن تشرد الموظفون والعمال المصريون في المحلات والمتاجر والمنشآت التي نكبت بالحريق وبلغ عددهم بضعة آلاف يعولون نحو عشرين ألفاً نسمة .

وبالجملة فإن القاهرة نكبت هذا اليوم في عمراتها ، بما لم تنكب بمثله في تاريخها الزاهر .<sup>(١)</sup>

### المسؤل عن حريق القاهرة

من العرض السابق للأحداث يتبين لنا جلياً أن هذا الحادث لم يكن مدبراً سلفاً من جهة معينة إنما جاء نتيجة عدة عوامل تضافرت معاً لتصنعه .

يقول حسنين هيكل " أنا مش معتقد لغاية هذه اللحظة أن عملية حريق القاهرة بدأت بتدبير مقصود على هذا النحو لكن أنا أعتقد إنه كان ركام وعود كبريت قرب من الركام والدينا ولعت، لكنه أظن إنه العفوي فيه ابتداء ثم دخل الجزء المنظم"<sup>(٢)</sup>

ويقول محمد نجيب : " نزل الجيش ، وتمكن بصعوبة من إخماد الحرائق وتفريق المتظاهرين ، ولكنه لم يتمكن من معرفة : من حرق القاهرة ؟ وحتى الآن

(١) عبد الرحمن الرافي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " مرجع سابق ص ١٢٦ ، ١٢٧ يتصرف .

(٢) محمد حسنين هيكل برنامج " مع هيكل " الجزيرة نت ، تاريخ الحلقة ١٢/١٢/٢٠٠٦ .

لا أعتقد أن أحداً قد عرف الإجابة . لقد كان هناك من يعتقد أن حريق القاهرة مثل حريق " بوجوتا " عاصمة كولومبيا ، تم بتدبير الشيوعيين ، وكان هناك من يعتقد أنها مؤامرة بريطانية ، وكان هناك من يعتقد أنها مؤامرة وفدية ، ولا يزال آخرون يعتقدون أنها مؤامرة من القصر " (1)

### العوامل التي تسببت في حريق القاهرة

لقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى حريق القاهرة ذلك الحادث ذو التأثير البالغ في تاريخ مصر من أهم هذه العوامل هي:

١- لا شك أن أول هذه العوامل هو الاحتلال الإنجليزي إذ أن وجوده يدعو إلى إثارة السخط في النفوس ، هذا إلى جانب أن فظائع الإنجليز في القنال وخاصة مجزرة الإسماعيلية التي وقعت في اليوم السابق لحريق القاهرة قد هاجت الشعور العدائي ضد البريطانيين وأوصله إلى درجة الغليان وفقدان الوعي والاتزان فانصرف إلى الحريق كمظهر للحنق والغضب اللاشعوري وتفاقم شعور العداة فشمّل الأجانب عامة ، فاستهدفت محالهم للحريق والنهب والتدمير وإلى هنا تقف مسئولية الاحتلال الإنجليزي . (2)

٢- العامل الثاني يتمثل في حكومة الوفد التي شجعت في البداية المتظاهرين على الاستمرار في التظاهر عن طريق الخطبة الحماسية لوزير الشؤون الاجتماعية عبد الفتاح حسن ، فقد كانت ترى أن التظاهر ضد ما فعله الإنجليز أقل ما يفعل كرد فعل على مجزرة الإسماعيلية حتى لا تتكرر ثانية ، وحتى تضغط على الإنجليز

(1) محمد نجيب " كنت رئيسا لمصر " مرجع سابق ص ٩٤ .  
(١) عبد الرحمن الرفاعي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " مرجع سابق ص ١٢٧ .

للعودة للمفاوضات وإنجاز الجلاء . وقد ظنت أن تراخيها أمام المظاهرات الشعبية وإطلاق العنان لها مما يوطد مركزها في الحكم ، وفي الانتخابات إذ يكسبها عطف الرأي العام الثائر ضد الإنجليز وممارساته المستفزة ، لذا لم تستجب لنصح مدير الأمن بعدم استئناف الدراسة في المدارس والكليات في صبيحة هذا اليوم<sup>(1)</sup>.

ولم تكن حكومة الوفد تُقدّر ما ستفعله هذه المظاهرات العشوائية غير الموجهة، ولو كانت تعرف ما ستفعله لأسرعت بطلب إنزال الجيش ظهراً لحفظ النظام بدلاً من تأخير نزوله إلى ما قبل المغرب بعدما كانت العاصمة قد احترقت ، وما كانت حكومة الوفد تُقدّر أن ضغطها على الإنجليز لإنجاز الجلاء سيستخذه الإنجليز ذريعة لإجبار الملك على إقالة الوزارة .

٣- العامل الثالث يتمثل في رجال البوليس الذين أبدوا تهاوناً جسيماً في أداء واجبهم لدرجة أن بعضهم وقف جامداً وهو يشاهد حوادث الحريق بل حوادث السلب والنهب .

وقد يكون مبعث ذلك إحساسهم بالسخط والمرارة من تعرض زملائهم في الإسماعيلية للذبح والتقتيل ، ولكن هذا الإحساس ما كان يجوز أن يطغى على الشعور بالواجب ، وهو أول مميزات رجل الأمن والنظام . (2)

٤- العامل الرابع : هو الملك فاروق فبرغم حالة الاحتقان التي كانت تعم البلاد من جراء المذابح التي ترتكبها القوات الإنجليزية خاصة مذبحه الإسماعيلية

(٢) نفسه ص ١٢٨ .

(١) نفسه ص ١٢٩ .

فإنه دعا - في اليوم التالي للمذبحة - ضباط الجيش والبوليس لحضور مأدبة غداء ابتهاجاً بمولد حضرة صاحب السمو الملكي الأمير أحمد فؤاد ولي العهد ، وكان الواجب على الملك أن يلغي هذه المأدبة عندما بلغته أنباء مجزرة الإسماعيلية ليبادل الشعب شعوره بالحداد على الشهداء الذين سفكت دماؤهم في هذه المجزرة ، كما كان واجباً عليه بدلاً من الاحتفال بمولد ولي العهد أن يسعى لإيجاد حل لتماذي الإنجليز في طغيانهم فيضغط على الإنجليز لوقف أعمال العنف ضد المدنيين والبوليس ، والعودة إلى المفاوضات ، وكانت حكومة الوفد وسائر الشعب سوف تؤيده وتقف بجانبه وتدعو له ولولي عهده بدوام الصحة وطول العمر والبقاء في الحكم ، لكن الملك كان يخشى الإنجليز أكثر من خشيته لثورة الشعب ومعارضة حكومة الوفد ؛ فحدث ٤ فبراير ١٩٤٢ كان مثلاً أمام عينيه دائماً ذلك الحادث الذي علمه أن أمر استمراره في الجلوس على العرش بيد الإنجليز لا الشعب .

فلا عجب إذن أن يسترضي الإنجليز وإن سخط الشعب . فها هو يقيم احتفالاً كبيراً في اليوم التالي لمذبحة الإسماعيلية التي أثارت الشعب ، وكان قد عين عبد الفتاح عمرو سفير مصر في إنجلترا مستشاراً له للسياسة الخارجية - وهو المعروف بميوله الإنجليزية - بعد سحب الحكومة له احتجاجاً على هدم القوات الإنجليزية لكفر أحمد عبده !

٥- والعامل الخامس والأخير يرجع إلى قادة المظاهرات من المثقفين والمتعلمين الذين كان عليهم توجيه المتظاهرين إلى عدم الاعتداء على المنشآت والمدنيين حتى تحقق المظاهرة غايتها ولا تتحول عن طريقها الوطني الشريف إلى التدمير والتخريب الذي يطيح بالوطنية والأخلاق .

ومما سبق يتبين لنا جلياً أن جميع من اتهم بتدبير هذا الحادث براء منه فالإنجليز لن يدبروا حريقاً يستهدف حرق المنشآت الإنجليزية وقتل المواطنين الإنجليز ! وكان في القاهرة وحدها حوالي سبعة عشر ألف أجنبي معظمهم من الإنجليز . " وقُدرت أرواح الأجانب الباقين في القاهرة في العاصمة المصرية بحوالي سبعة عشر ألف . " (1)

وكذلك الملك لم يدبر هذا الحادث - كما ادعى الوفد بعد ذلك - وإن كان استغل حريق القاهرة في الإطاحة بحكومة الوفد بضغط من الإنجليز ؛ إذ ليس من مصلحة الملك إشاعة الفوضى في البلاد وتدمير العاصمة التي يعيش فيها فقد كانت الحرائق متاخمة لقصر عابدين الذي أقيم فيه الملك الاحتفال ، ومن المعروف أن الملك فاروق كان جباناً . ولقد دعر ذعراً شديداً عقب وقوع الحريق ، وفكر في الهرب من البلاد . (2)

كذلك لم تقدم حكومة الوفد على ارتكاب هذه الجريمة ؛ فهي المسئولة عن الأمن والنظام اللذين بفقدتهما تفقد بقاءها في الحكم وهو ما حدث بالفعل " وبعد طرد النحاس والقبض على سراج الدين لم يكن لدى الحكومة (حكومة ثورة يوليو) أي وثائق تدين الرجل ، أو الوفد . " (3)

ولقد ثبت بعد اندلاع الحرائق أن فؤاد سراج الدين ( وزير الداخلية ) قد حاول الاتصال بحيدر باشا (القائد العام) تليفونياً ليصدر أوامره بنزول قوات الجيش ،

(1) محمد حسنين هيكل برنامج " مع هيكل " الجزيرة نت ، تاريخ الحلقة ٢٠٠٦/١/١٢ .

(2) أنور السادات " أسرار الثورة المصرية " مرجع سابق ص ٢٤٢

(3) محمد نجيب " كنت رئيساً لمصر " مرجع سابق ص ٩٤

ولكن حيدر باشا لم يغادر مقعده على مائدة غداء الملك ، مما دفع فؤاد سراج الدين إلى مغادرة مكتبه بوزارة الداخلية والذهاب بنفسه إلى قصر عابدين ، ومع ذلك ظل ينتظر حتى الساعة الثالثة إلا الربع مساءً حتى حضر له حيدر وحافظ عفيفي (رئيس الديوان) ثم ذهبا معاً لمقابلة الملك وعادا فأبلغاه موافقة الملك على نزول ضباط الجيش ، وقد نصحهم الفريق عثمان المهدي ( رئيس أركان حرب الجيش ) قبل نزولهم بتفادي الشوارع المزدهمة بالمظاهرات ، وحتى الخامسة مساءً لم تتحرك قوات الجيش ، وعندما وصلت بعد ذلك إلى حديقة الأزبكية أخذت موقفاً سلبياً من الذين يحرقون القاهرة بدعوى أنه لا توجد عندهم أوامر كتابية بإطلاق الرصاص ومع الغروب كان كل شيء قد انتهى ، احترقت القاهرة وباتت فيها عصابات اللصوص والمخربين تسرق وتتهب .<sup>(١)</sup>

ولم يكن هناك تفسير لتأخير القصر عن استجابة طلب فؤاد سراج الدين بنزول الجيش لخمسة الشورة غير شكوك وهواجس ساورت الملك وعدداً من رجاله والدواعي ملتبسة بالشك وسوء الظن :

- ١- وربما أنه لم يكن لديهم صورة كاملة للموقف في العاصمة .
- ٢- وربما أن الملك كان مازال يظن أن وزير الداخلية " عنده لعبة يلعبها " .
- ٣- وربما أن الملك "فاروق" كان راغباً في إحراج وزير الداخلية والوزارة إلى أقصى مدى وبما يسمح له بحرية التصرف .
- ٤- وربما - وهو احتمال وارد - أنه لم تكن تحت تصرف قيادة المنطقة المركزية للجيش قوات كافية - جاهزة .

(١) أحمد حمروش " ثورة ٢٣ يوليو " الجزء الأول مرجع سابق ص ١٧٠ ، ١٧١ .

٥- وربما - وهو افتراض لا يمكن استبعاده بالكامل - أن القيادة العسكرية لم تكن واثقة من رد فعل الجيش إذا نزل إلى شوارع العاصمة وفيها بقايا المظاهرات وشراذم السلب والنهب - وقد لاح الغروب ولعلعت ألسنة النار وظهر وهجها مع نزول الظلام !<sup>(١)</sup>

والعجيب أن هذا الحادث كان سبباً في القضاء على كل من تسبب فيه ، فقد كان حريق القاهرة من أكبر أسباب التعجيل بقيام ثورة ٢٣ يوليو التي أطاحت بالملك والإنجليز والأحزاب والمثقفين جميعاً.

كما أن حريق القاهرة قد قرّب واشنطن وأبعد لندن على حد تعبير حسنين هيكل ففي مساء ذلك اليوم الذي احترقت فيه القاهرة وقع تطور سياسي بالغ الأهمية لم يخطط له أحد لكن حقائق الأشياء فرضته على سياق الحوادث ودخلت به إلى المجرى الرئيسي للتطورات ففي مساء ذلك اليوم قرر الملك فاروق إقالة وزارة الوفد ، وكان الملك في أعماقه يحس أنه لا يستطيع التصرف حتى في الشأن الداخلي - على الأقل منذ ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وحتى الآن ٢٦ يناير ١٩٥٢ - إلا بموافقة الحكومة البريطانية أو الاستئناس برأيها . لكن هذه الليلة طلب استدعاء السفير الأمريكي " كافري " .

### درس في كيفية التعبير عن الغضب

إن كثيراً من القنوات الفضائية غير المسئولة ، والصحفيين المغامرين ، ومنظمات حقوق الإنسان المشبوهة ، يستغلون حرية الصحافة والتعبير في إثارة الجماهير ، وشحن نفوسهم لمصلحة أجنادات خاصة ، ومصالح شخصية بدلاً من

(١) محمد حسنين هيكل " سقوط نظام " مرجع سابق ص ٤٣٠ .

العمل على توعيتهم وتبويرهم ، مما يترتب عليه انتشار السخط وعدم الرضا بين فئات الشعب الأمر الذي يولد المظاهرات التي لا تخلو من تخريب وفوضى وتدمير . فتقافة المظاهرات السلمية ما زالت قاصرة على الشعوب المتقدمة فقط فما من مظاهرة اندلعت إلا واكبها التخريب والتدمير . وثورة ٢٥ يناير تكاد تكون الاستثناء الوحيد ، كما أن المظاهرات عندنا يغلب عليها الانفعال لا التعقل لذا يسهل توجيهها إلى أغراض أخرى غير التي خرجت من أجله .

### موقف الجيش مما يجري

لما قام الكفاح في القنال في أكتوبر سنة ١٩٥١ بعد إلغاء المعاهدة ، لم يشترك الجيش في المعركة لأن الظروف لم تكن مواتية لاشتراكه فيها ، ولكن بعض ضباط الجيش ساهموا سرّاً بتدريب الفدائيين على حرب العصابات وإمدادهم بالسلح والذخيرة والمفرقات وبالمساهمة الشخصية فيها .<sup>(١)</sup>

وبعد حريق القاهرة فإن الجيش هو الذي أعاد الأمن والنظام ، وأوقف الحريق والنهب والفوضى وشاهد الضباط الأحرار مبلغ ما جرّه انحدار الحكم وفساده على البلاد من كوارث وويلات ، وأي كارثة أكبر من شبوب الحرائق التي كادت تدمر عاصمة البلاد ورمز حضارتها .

ومن هنا سارعوا الخطى في إعلان الثورة وقدموا موعدها عما كانوا يعتزمون من قبل .<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

(١) عبد الرحمن الرافي " مقدمات ثورة ٢٣ يوليو " مرجع سابق ص ١١٤ .  
(٢) نفسه ص ١٣١ .